معنى الغزو الثقافى

تتداول بيننا كثيرًا عبارة «الغزو الثقافى أو الغزو الفكرى».

فما معنى كلمة «الغزو» أولاً وهى من «غزاه، يغزوه، غزوًا»؟

تقول كتب اللغة فى جملتها: إن المعنى الأصيل لكلمة الغزو يحمل معنى القصد والإرادة والطلب.

فمغزى الكلام «مقصوده والمراد منه»، وغزوت القوم «قصدتهم بالحرب»، والغازى «قاصد الحرب» وجمعه «غزاة أو غزًّا»

ومنه قوله تعالى عن المثبطين للمجاهدين ﴿كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم «أى عنهم» إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا «وقعدوا مثلنا» ما ماتوا وما قتلوا﴾[1]

وقد تحدث الصحاح ومختاره عن مادة «غزا» فجاء بتصريفاتها اللغوية ثم قال «أغزاه: جهزه للغزو، ومغزى الكلام: مقصده وعرفت «ما يغزى» من هذا الكلام أى ما يراد منه»

وجاء فى «المنجد»: غزا يغزو غزوا طلبه وقصده، ويقال عرفت ما يغزى من هذا الكلام أى ما يراد منه. وفى «القاموس المحيط»: غزاه غزوًا أراده وطلبه وقصده، والعدو: سار إلى قتالهم إلخ. فالمعنى العام الأصيل للغزو القصد والإرادة والطلب، ومعنى «غزا العدو» قصد إلى قتاله وتجهز له.

ومن هذا المعنى «غزوات الرسول» التى قصد منها وأراد بها التصدى لقتال العدو. وهذا المعنى أو هذا القصد يكون للاعتداء كما يكون للدفاع وللوقاية، كما حصل فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو أننا تتبعناها لمعرفة أسبابها لم تجد فيها غزوة عدوانية، بمعنى أن الرسول لم يبدأ بالعدوان عليهم لنهبهم، وإنما

(١) سورة ال عمران ١٥٦.

كانت حروبه أو غزواته إما بقصد استرداد حق للمسلمين كغزوة بدر، أو للدفاع مثل غزوات أحد، والخندق، وفتح مكة لما نقض المكيون العهد واعتدوا على حلفاء الرسول.

ويدخل ضمن ذلك الحروب الوقائية مثل غزوة مؤتة، وتبوك، لما علمه الرسول عن الروم وإعدادهم الجيش للهجوم على المسلمين وأرضهم، فبادر هو صلى الله عليه وسلم بالتوجه إليهم آخذًا بالقاعدة الحربية المعروفة لدى القواد من قديم من أن «الهجوم من أفضل وسائل الدفاع» وهكذا لم تكن الغزوات تحمل طابع البدء بالعدوان تحقيقًا لتوجيه الله فى كتابه ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾[١].

وقوله تعالى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٢] ومع أن الأصل كما رأيت فى اللغة من كلمة «غزا يغزو» قصد وإرادة الحرب أى التوجه لقتال العدو، وهذا لا يعنى أن تكون دائمًا حربًا عدوانية تهجمية - كما قلنا- فقد اشتهر عن الكلمة أنها تعنى التهجم والبدء بالعدوان، مما جعلنى وبعض الكتاب الإسلاميين يكرهون التعبير عن حروب الرسول بالغزوات ويؤثرون عليها التعبير بالحروب لأن حروب الرسول لم تكن فيها أية حرب عدوانية، بل كانت كما سبق دفاعية أو وقائية. فتجنبوا التعبير بالكلمة الموحية فى النفوس الآن بالاعتداء وهى كلمة «الغزوة».

والرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: «من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية» لم يكن يريد بذلك الاعتداء ولا تحريض المسلمين عليه وإنما كان يريد من المسلمين الاستعداد الدائم للحرب، للدفاع عن الإسلام أو الخروج الفعلى للدفاع وأن من فقد هذه الحاسية منهم، فقد تخلى عن دينه والدفاع عنه، كمن يفر من الجندية فى جيش الوطن، فإنه لا يعد وطنيًا، مدافعًا عن وطنه ورفعته وعزته، لذلك سنت له الحكومات عقوبات مناسبة. كما تحدث الرسول

---

(١) النساء ٩٠.
(٢) البقرة ١٩٠.

عن عقاب الذى يتخلى عن الدفاعٍ عن دينه وأرضه. وهو الميتة الجاهلية لا الإسلامية. كما نقول «مات خائنا لوطنه».

المعنى المجازى الحديث للغزو:

ولما كان المعنى اللغوى الأصيل يحمل معه دخول الجيش الغازى أرض العدو والسيطرة عليها وعلى من فيها وما فيها فقد استعملت الكلمة مجازًا حديثًا فى غزو المعانى والأفكار والثقافات الأخرى للمعانى والأفكار والثقافة الأصيلة السائدة فى أمة من الأمم، لزحزحتها عن مكانتها فى أمتها، والحلول محلها كلها أو بعضها. فنقول إن الثقافة الأجنبية غزت الثقافة الوطنية[1] مثلا، ونقول الغزو الثقافى أو الفكرى، أو بتعبير آخر نقول إن المدلول المادى لكلمة الغزو المتمثل فى الحرب والسيطرة استعمل فى المدلول المعنوى المتمثل فى غزو أفكار وثقافة. ومبادىء أمة لأفكار وثقافة ومبادئ أمة أخرى على سبيل المجاز.

لكن هناك فرقًا: هو الفرق بين الأمور المادية والأمور المعنوية.

فالغزو المادى المتمثل فى الحرب، لابد أن يكون وراءه قصد وجهود واستعداد موجه من الخارج، للغزو والسيطرة على بلد أو أمة من الأمم كشأن الحروب دائمًا.

أما الغزو المعنوى فيجوز أن يكون وراءه أيضًا قصد واستعداد، ولكن بالأسلحة الفكرية المعنوية وتدبير وسائل الهجوم المعنوى بقصد تلويث أفكار أمة وتوهين مبادئها والاستخفاف بآرائها وتقاليدها الأصيلة لتتقبل بسهولة الأفكار

---

(١) فعلى سبيل المثال: ثقافة الإسلام الأصيلة تقضى بألا تكشف المرأة من جسمها إلا وجهها وكفيها وقدميها فغزانا الغرب بثقافته التى لا ترى هذا. وثقافة الإسلام الأصيلة توجب بر الوالدين ورعايتهما ولا سيما فى كبرهما، ولكن ثقافة الغرب مثلا تسير عكس هذا حتى لينفصل الولد عن والديه بمجرد أن يكبر ويستقل بحياته فلا يدرى عنهما شيئًا وربما تخلص منهما بإيداعهما أحد الملاجئ. وثقافة الإسلام الأصيلة تقتضى الغيرة على العرض فلا يسمح المسلم لابنته بمصادقة شاب تذهب معه ويجلسان حيث شاء. وفى الغرب يفرح الوالدان بصداقة بنتهما لشاب، حتى تستقبله فى البيت وينفردا فى حجرة خاصة تحت رعاية الوالدين وتشجيعهما ويذهبان للسياحة فى أى بلد أسابيع وشهورًا فإذا اقتبس المسلمون شيئًا من هذه الملامح الغربية فى حياتهم يكونون قد غزتهم الثقافة الغربية. وهكذا.

والثقافة والمبادئ الوافدة عليها الغازية لها، وتذوب فيها، ولجرها بالتالى إلى أن تطبع حياتها بطابع الغازى كما يريد، وتتخلى عن طابعها الأصيل.

وقد كان هذا من أهداف الاستعمار للسيطرة على بلد من البلاد، فلا يكتفى بالسيطرة المادية المتمثلة فى حكمه للأمة بجنوده، بل يعمل على تحويل أفكارها ونظرتها للحياة إلى أفكاره هو، وثقافته هو، بحيث تصير امتدادًا لثقافته، ولو جلا بجيوشه عنها، فيبقى الغزو الثقافى، ولو زال الغزو العسكرى، ويبقى التعاطف والتبعية النفسية مع الأمة التى رحل جنودها.

وقد قرأنا لبعض رجال الإنجليز الحكام عن البلاد التى استعمرتها تعبيرات تفصح عن هذا المعنى، أو هذا الهدف، مثل قولهم عن مصر والهند: لو خرجنا عن مصر، أو لو خرجنا بجنودنا من الهند فسوف يظل لنا جنود يلبسون الطربوش أو جنود يلبسون الزى الهندى من المصريين أو الهنود يمثلون فكر الإنجليز.

وهكذا عملت فرنسا فى الشمال الأفريقى وصرحت بذلك فى غير مبالاة، وعمل المستعمرون.

وحتى لو صرفنا النظر عن مثل هذه الأقوال الصريحة التى تكشف لنا خبيئات نفوس المستعمرين فإن أفعالهم وخططهم فى البلاد التى استولوا عليها، تكشف بكل وضوح عن أهدافهم فى الغزو المعنوى الفكرى لهذه البلاد.

وأهمية هذا الغزو عندهم هى: إيجاد رجال من البلد المستعمر، يمثلون وجهة نظر المستعمرين وثقافتهم دائمًا. فمثل هذا الغزو كان وراءه تخطيط وإرادة وقوة تنفذه بوسائل متعددة، يملكها المستعمر المسيطر. وقد يسبق هذا الغزو الغزو العسكرى ويمهد له.

صورة له من قديم:

وينطبق هذا الغزو الثقافى من ناحية القصد والإرادة والتخطيط له، على هذا الغزو الذى اتجه إليه الغرب بعد أن فشل فى السيطرة الحربية بقواته وجنوده على الشرق الإسلامى فى الحروب الصليبية، فقد بدأ يفكر فى تنفيذ ما أملته عليه

كراهته وحقده على الأمة الإسلامية، لاسيما بعد أن انتصرت عليه وردته إلى بلاده خائبًا بفضل عقيدتها وثقافتها.

فبدأ يخطط لضرب القاعدة المتينة التى ارتكز عليها انتصار المسلمين عليه، وهى عقيدته وثقافته، وذلك بالوسائل السلمية الفكرية الهادئة، عن طريق التبشير والاستشراق اللذين بدءا نشاطهما بشكل ملموس بعد الإخفاق الذى نالهم فى الحروب الصليبية، واحتضنتهما السياسة لتنفيذ أغراضها.

قال أحد المتحدثين باسم المبشرين الفرنسيين «أولم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أولم نرجع تحت راية الصليب، لنستأنف التسرب التبشيرى، والتمدن المسيحى، ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح؟»[(١)].

وكان هذا قصد ولسان حال جميع المبشرين والمستشرقين، وهم جيوش هذه الحرب إلا البعض من المستشرقين أخيرًا، أولئك الذين أخلصوا بقدر استطاعتهم للحقيقة العلمية وهم قليل.

هؤلاء المبشرون والمستشرقون الذين بدءوا الغارة السلمية على العالم الإسلامى، بعد أن فشل فى الغارة المسلحة عليه فى الحروب الصليبية، فقد خططوا ودبروا، وأنشئوا المؤسسات[(٢)] المتنوعة فى العالم الإسلامى لخدمة أهدافهم فى زعزعة القاعدة الدينية المتينة التى يقف عليها المسلمون، وكانوا هم فرسان الغزو الثقافى والفكرى المدبر المخطط له، المشمول برعاية الحكومات المسيحية ومساعداتها، المدعم بتبرعات المسيحيين فى كل مكان.

---

(١) كتاب «التبشير والاستعمار» للأستاذ الدكتور مصطفى الخالدى وعمر فروخ فى ص ١١٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣. بيروت. وهو من أهم الكتب التى تكشف عن وسائل الغزو الفكرى وخططه فى العالم الإسلامى، من تبشير واستشراق، كذلك كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» تأليف: «شاتليه». وتلخيص وتعريب الأستاذين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب ومعهما كتاب «التبشير والاستشراق» للمستشار محمد عزت الطهطاوى، طبع مجمع البحوث ١٩٧٧م.

(٢) يمكن أن تراجع فى ذلك الإحصائيات التى جاءت فى هذه الكتب السابقة ولاسيما «الغارة على العالم الإسلامى» وهى إحصائيات تقف عند أوائل هذا القرن عن هذه المؤسسات التى لا تزال قائمة، وأضيف على نسقها الكثير بعد ذلك حتى الآن وتنوعت الأساليب وتجددت بلا شك مع التحولات السياسية والاجتماعية التى حدثت خلال هذا القرن.

مؤتمرات لهذا الغزو:

ولقد عقدوا مؤتمرات كثيرة لهذا الغرض من أول هذا القرن، يمكن متابعتها والوقوف عليها من كتب ودوريات متعددة، ذكرنا بعضها فى الهامش، وسيهولك ما يعمل له هؤلاء، وما عملوه فى الماضى فى سبيل هذا الغزو.

وآخر ما بلغنا من هذه المؤتمرات التبشيرية التى تتولى التدبير والتخطيط لهذا الغزو، هو مؤتمر كنسى عقد فى «جلين ايرى» فى ولاية كولوراد بالولايات المتحدة ١٥ / ١٠ / ١٩٧٨ بناء على توصية من أحد المؤتمرات التبشيرية السابقة، وكان هذا المؤتمر التبشيرى هو رابع مؤتمر من نوعه فى السبعينيات، وكان هدفها واحد هو: «إحكام استراتيجية فعالة لتنصير المسلمين، وبحث سبل تحقيق ذلك وتدبير التمويل الكافى، وإزالة العقبات، وقهر القوى المعاكسة لهذه المهمة» وقد دبروا من المال ما أعلنوا عنه من أنه: بلغ مليار دولار، وبدءوا فى تنفيذ خططهم لتنصير ٧٢٠ مليون مسلم الذين عبر عنهم تقريرهم الأخير. بأنهم صاروا الآن ثمرة ناضجة تقتطفها الكنيسة[١] بسهولة. وقد طبعت أعمال هذا المؤتمر فى كتاب يقع فى ٦٣٨ صفحة من القطع الكبير بالإنجليزية، قام بطبعه وتولى نشره «مركز الاتصالات العالمية للأبحاث التبشيرية ذات المستوى الرفيع»[٢].

وقد جاء فى افتتاحية الكتاب التى كتبها «تشارلوت فورد»: «إن عملية إشراك المسلمين فى بشارة عيسى (أى إدخالهم فى النصرانية) تمثل واحدًا من أعظم التحديات التى تواجه الكنيسة المسيحية، وصار هذا التحدى الآن أكثر وضوحًا بسبب ما وقع من أحداث سياسية، اجتذبت الأنظار إلى الأصقاع الإسلامية.

---

(١) من مقدمة كتاب هذا المؤتمر ص ١ ترجمة مجمع البحوث، وقد بدأت فكرة هذه المؤتمرات وإقامتها حتى فى قلب البلاد الإسلامية من أول هذا القرن حيث دعا القس زويمر زعيم التبشير إلى إقامة مؤتمر القاهرة فى ٤ أبريل ١٩٠٦، و أقيم فى منزل عرابى فى باب اللوق من (الغارة على العالم الإسلامى).

(٢) وقد حصل مجمع البحوث أخيرًا على نسخة منه، قام بترجمة أهم ما فيها من أبحاث وهو بعنوان «الإسلام والإنجيل» طبع سنة ١٩٧٩.

وانتهت المقدمة بقول الكاتب: «وقد انتهى المؤتمر بالاطمئنان والأمل، وبتعهد جديد بأن تصل بشارة عيسى إلى ٧٢٠ مليون مسلم، وبتصميم جديد على تجميع الموارد، وبتكتيل الجهود من أجل هذا الهدف، وبثقة فى أن كنائس - ذات مناخ روحى وثقافى مناسب - ستقام لمن يتنصر من المسلمين، سواء أقيمت لهم أو أقاموها بجهودهم».

على حين انتهت مقدمة المركز الناشر إلى قوله: «وهذا المؤتمر قد وهب الكنيسة بصيرة وأملا جديدين فى مجال التنصير فى العالم الإسلامى، وعلى الكنيسة الآن أن تستجيب لتلك الرؤية وذلك الأمل، فالآن هو وقت تضاعف الحصاد بين المسلمين، الآن هو وقت العمل الشاق والبذل المالى، الآن هو وقت الإيمان الصادق بأن الله سيسبغ مجده على كل العالم الإسلامى، الآن هو وقت الخلاص للعالم الإسلامى، وقد نضج المحصول فى الحقل، ورب الحصاد ينادى: أين العاملون؟ ويجب على الكنيسة ألا تطيل أمد تباطئها».

وقد بدءوا على الفور فى التنفيذ، فأنشئوا «معهد صمويل زويمر» لتدريب المبشرين فى كاليفورنيا، كما أشاروا إلى أنهم بدءوا العمل المركز فى الشرق «كراتشى» بإنشاء مركز تدريب نسائى.. إلخ.

هذا المؤتمر وما سبقه من مؤتمرات[١] وإقامة مؤسسات متنوعة: تعليمية وطبية واجتماعية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ولا سيما فى البلاد الفقيرة المتخلفة اجتماعيًّا، ومؤسسات على هذا النمط أيضًا فى البلاد الأفريقية الوثنية لمحاصرة الإسلام والوقوف فى وجهه، إنما يتم هذا كله وفقًا لخطة مرسومة مدبرة للهجوم على الإسلام، وغزو عقول وقلوب أبنائه، وخلخلة عقائدهم[٢] على الأقل وتفريغ

---

(١) نذكر منها مؤتمرات القاهرة ١٩٠٦ ولكنو بالهند ١٩١١، وهولندا، وبيروت، والقدس، وتونس، وأدنبرة، والجزائر، وسويسرا، وأمريكا ١٩٧٨ م، والقاهرة ١٩٠٦.

(٢) وفى هذا يقول صمويل زويمر عميد المبشرين فى أوائل هذا القرن بعد تجارب مر بها: إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته فى مهاجمة العالم الإسلامى، فأدى المهمة على أكملها، وانتهى إلى نتائج لم يكن يحلم بها أحد منذ الحروب الصليبية، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين، إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحيًّا، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك، ولكن الغاية التى نرمى إليها إنما هى إخراج المسلم من الإسلام فقط، ليكون ملحدًا أو=

نفوسهم من الداخل ليسهل ضمها للمسيحية أو تجنيدها للعمل فى مصلحة الغرب وثقافته وضد الإسلام والمسلمين وثقافتهم.

وبجوار هؤلاء عمل المستشرقون وعلى الخط نفسه، ولكن بأسلوب علمى - كما يدعون - يقومون بهجوم على الإسلام من وجوه فكرية يتلمسونها، وبمغالطات يتعمدونها، ويكتبون ذلك باللغة العربية وغيرها، ليغزوا العقول الإسلامية باسم البحث العلمى، ويجندوا أخيرًا هذه العقول وأصحابها فى بلادهم ومجتمعاتهم، ليحدثوا الذعر والقلق الدينى فى النفوس، ويبثوا فى المسلمين الاستخفاف بقضايا دينهم، والتعلق بكل ما يصدر عن الغرب.

وهذا كله هو الغزو، لا بالسلاح، ولكن بالكلمة، وبالأساليب الأخرى الخداعة، وهو غزو موجه إلينا من الخارج لغرض مقصود، وهدف مرصود، هو زعزعة بنياننا الفكرى والعقدى لنصير أمامهم كأننا أشباح، أعجاز نخل خاوية، ويسهل عليهم تشكيلنا كما يريدون. أسماء إسلامية، وأفكار واتجاهات وتصرفات غربية غير إسلامية فنصير تبعًا لهم[1] سياسيًا وفكريًا.

وظهر الغزو الفكرى الشيوعى فى هذا القرن:

ويتصل بهذه الحروب الفكرية التى شنها المبشرون الغربيون، وزملاؤهم المستشرقون المشتركون معهم فى الهدف من قرون ماضية ولا يزالون، حرب أخرى حديثة بدأت فى أوائل هذا القرن، شنتها علينا الشيوعية ودولتها التى تكونت فى روسيا سنة ١٩١٧ لنشر المبادئ الشيوعية على العالم كله: الإسلامى وغير الإسلامى، وهى ليست مجرد مبادئ فكرية نظرية تقف غالبًا عند بعض

= مضطربًا فى دينه، وعندئذ لا يكون مسلمًا، لا تكون عنده عقيدة يؤمن بها، عندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحمد. والملحد هو أول من يحتقر الإسلام والمسلمين ص ٨٠ من كتاب «الإسلام والثقافة العربية «لأنور الجندى».

(١) جاء فى كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» ص ٧٨ الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ قال اللورد بلفور «رئيس الشرف لإحدى لجان التبشير»: إن المبشرين هم ساعد كل الحكومات فى أمور هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات، ولذا فنحن فى حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين.

المثقفين، بل هى مبادئ تخاطب أيضًا البطون وحاجات الإنسان الغريزية وما يتجه إليه فكره وخياله من مساواة.. إلخ. وبذلك خاطبت كل المستويات ومست حاجتهم الدنيوية المهمة، وهى لا يمكن أن تقبل معايشة دين أو مذهب آخر. وقد أخذت الدولة الشيوعية الأولى فى روسيا - أولا - على عاتقها نشر هذه المبادئ، ثم انضمت إليها دول أخرى، اعتنق حكامها الشيوعية وعملوا على تطبيقها ونشر مبادئها التى أخذت تتسرب إلى بعض النفوس فى كل مكان، ولو لم يصل إليها نفوذ الدول الشيوعية، حيث يتعلق بما فيها من شعارات ووعود، أو مبادئ أو أهداف كثير من المطحونين والمظلومين والساخطين، فى أى مكان، على أمل أنها تحقق لهم الإنصاف الذى يتصورونه وتنزل الضربات بمن يتصورونهم خصومًا وظالمين لهم.

ولذلك وجدنا دولا شيوعية وثورات شيوعية تقوم فى أمريكا الوسطى والجنوبية، وفى آسيا وأفريقيا وغيرها على رغم البعد الشاسع من الدولة الشيوعية الأم ونفوذها.

كما وجدنا أحزابًا شيوعية تقوم فى كثير من الدول والمجتمعات الغربية والشرقية، تعمل على جلب الشيوعية لبلادها، لإقامة حكم شيوعى فيها، ووراء هذا كله بالنفوذ والمال من الدولة الشيوعية.

وصارت الشيوعية بذلك أخطر أنواع الغزو الفكرى لكل الأمم، ولا سيما الإسلامية، اعتقادًا منها بأن الإسلام بعقيدته وأنظمته، يمثل أقوى حصن فى وجهها.. وفى كل الحالات نجد النفوذ الشيوعى الروسى وغيره، يقف من وراء هذا الغزو يمده بكل ما يمكن من الإمكانات.. فهو غزو موجه من الخارج، وأمكن أن يجد له قواعد يرتكز عليها فى الداخل!!

غزو مجلوب أو «استغزاء»:

وهناك نوع آخر ليس من نوع ما مر، ولكنه شبيه به من ناحية تأثيره على فكرنا الأصيل، وهو ليس موجها لنا من الخارج، مباشرة حسب تخطيط أعداء لنا ولثقافتنا، يقفون وراءه بالمال، ويتابعون تنفيذه بل نحن الذين نقوم به،

ونجلبه، ونشيعه بيننا، نتيجة إعجاب البعض منا وانبهاره به.

فنحن الذين نختاره، ونحن الذين نروج له، ونزج به بيننا، ونقدمه للأمة على أنه فكر مناسب، وهو فى الحقيقة غير مناسب، ولا يصلح غذاءً سليمًا لفكرنا. وهو يكون ترويجًا لفكرة مسمومة، أو رأى خبيث، يمس ثقافتنا، ويخدش ديننا أو أدبنا، يحتضنه منا الأشخاص ويلتقطونه من الخارج، ويقدمونه هنا على أنه رأى لهم، وهم فى حقيقة أمرهم مسلمون لا يساء الظن بهم، ولهم من يعجب بهم من تلامذتهم أو يتأثر بهم من القراء وغير القراء!!.

يفعلون ذلك عن سوء نية، أو بقصد شهرة من قبيل: «خالف تعرف» وليقال عنهم إنهم أحرار الفكر، ومجددون. وتثار ضجة حول أسمائهم، ويتعصب لهم بعض منا، إما باسم مناصرة حرية الفكر، وإما من قبيل الإعجاب بهم، أو التقليد لهم «ولكل ساقطة فى الحى لا قطة».

وربما يصير بذلك مشهورًا، وعلمًا من الأعلام، فيكون قدوة للشباب فى ارتياد هذا الطريق الشائك.

وقد حصل عندنا شيء من هذا، حتى استقر فى بعض الأذهان - ولا سيما شباب المتعلمين - أن هذا الطريق سهل للشهرة، وباب من أبواب الدخول للتاريخ، فتجرءوا على التقاط الآراء الشاذة المسمومة، لمستشرق أو غيره، يروجونها بين زملائهم، أو قرائهم إن كان لهم قراء. وبعض المسئولين عن الصحف على شاكلتهم، فوق أنهم يتخذون من الإثارة، طريقًا لكثرة التوزيع، فيلتقطون مثل هذه الآراء الشاذة، وينشرونها، ويقفون من وراء أصحابها، ويكونون لهم رأيًا عامًّا، يقف بجانبهم.. ويقبل على ما يكتبون من كتب ومقالات.

ويسارع إليهم عملاء للخارج هنا، ويحاولون استغلالهم[١]. والقارئ لا يصعب

---

(١) مرت علىّ أحداث مثل هذا أسجل بعضها تنويرًا للأذهان، وكشفًا للمخبوء، فمن ذلك أننى كنت أتولى الرد على صاحب رأى منحرف فى إحدى الصحف، ومرة لقينى رئيس تحرير الصحيفة، وهو صديق. فقال لى: لماذا تقف هذا الموقف؟ لماذا لا تكتب مثل هذا الذى ترد عليه؟ ونحن نعرف عنك أنك ذو فكر =

عليه أن يجد فى الحال أمثلة كثيرة مرت عليه من هذا النوع. ولاشك أن مثل هذا يؤثر فى أفكار بعض الناس، ويخدش ثقافتهم، ويهز ثقتهم نوعًا ما بقضايا من قضايا دينهم أو أدبهم، ويمثل غزوًا لأفكارنا وثقافتنا، ولكنه من داخلنا، وعلى يد نفر منا أسميهم «الطابور الخامس أو السادس»، أثر فيهم الغزو الخارجى، وصاروا من جنوده بيننا، يعملون من الداخل لا من الخارج. وقد آثر الأستاذ «الدكتور سليمان حزين» أن يسميه(١) «استغزاء» لا غزوًا، لأن السين والتاء فى مثل هذه الكلمة، فى اللغة العربية، تفيد معنى الطلب كالاستشفاء والاستقراض، بمعني طلب الشفاء والقرض، وصادفت هذه التسمية موقعًا فى نفسى، لأنها تعبر فعلًا عن الحقيقة لأن رجالًا منا يستوردون هذه الأفكار، ليروجوها ويوزعوها بيننا، فهم وكلاء عندنا للفكر الغريب(٢).

=متحرر ونحن مستعدون لأن نقف بجانبك وتصير رجلًا مشهورًا. فقلت له: إننى يافلان متحرر لامتحلل. ومرة قال لى صديق ممن كانوا يستثيرون الناس بآرائهم الشاذة، ويحدثون ضجة، وتروج الصحف لهم، ويقف معهم بعض الكبار قال لى: إن كتبى يتخاطفها الناس ويتضاعف توزيعها، على خلاف ما يحصل لكتابك وكان «الإسلام والشيوعية وقتها» وما دمت ملتزمًا للطريق الذى تسير عليه، فلن تلقى كتبك ما تلقاه كتبى. قلت له وإن، فلن أبيع دينى وفكرى نظير شهرتى ورواج كتبى، وماذا بعد حين نلقى الله؟

ومرة ثار الأزهر على كتاب لشاب من علماء الأزهر حتى تعرض لسحب شهادة العالمية منه وأشيع ذلك فاتصلت به سيدة صحفية كبيرة وقتها - كما قال لى - وقالت له: لا يهمك وظهر أن لها صلات بالخارج - أنا مستعدة لإرسالك لأوربا أو أمريكا لتحصل على أعلى شهادة، وهم هناك سيكرمونك ويقدمون لك كل التسهيلات طوال دراستك وتعود لتكون مثل فلان.. فرفض هذا العرض باعتزاز. ولازلت أذكر له هذا وأقدره من يومها.. وعملت يومها - وكنت شابًا مدرسًا فى معاهد الأزهر - على أن أهدئ من ثورة الأزهر وأعدل اتجاهات كبار العلماء الذين وُكل إليهم التصرف فى هذا الموضوع - وللتاريخ كان المرحوم الشيخ شلتوت قبل أن يكون شيخًا للأزهر - وانتهت الزوبعة وضاعت على المتربصين الفرص. وساعد على هذا أنى كنت ممن رد على هذا العالم الشاب بثلاث مقالات كبيرة فى «الزمان المسائية» فى صيف ١٩٥٠ ولا يزال عندى منها مقالتان. وكنت قد دعوته فى آخرها للمناظرة. ولما لقينى بعد ذلك ولم أكن رأيته من قبل. قال لى: لم أستطع الرد عليك أو مناظرتك لأنك مدحت ما يمدح، ونقدت ما ينقد، واقتنعت برأيك.. وقد سجل ذلك أخيرًا فى بعض كتبه الكثيرة الرائجة، وصار من كبار الكتاب الإسلاميين.

(١) وذلك خلال جلسة للمجلس القومى للثقافة برياسة الدكتور محمد عبد القادر حاتم المشرف العام على المجالس القومية المتخصصة فى ١١/١/١٩٨٤.

(٢) وقد أثر فيهم الغزو الفكرى فصاروا امتدادًا له بيننا، ولذا آثرنا تسميته «بالاستغزاء» بالغين لأنه حصل من الداخل وعلى يد رجال منا، وليس موجهًا مباشرة لنا من الخارج، حتى لا يأتى أحد وينكر أن عمال هؤلاء ومن تبعهم لا ينطبق عليها اسم «الغزو الثقافى»، وبالتالى لا يجوز لنا أن نحاربها لأنه مكتوب عليها «صنع فى مصر»، مع أنها بضاعة الخارج، قام هؤلاء بتجميعها وترويجها ووضعت «تكت» مزيف عليها=

من قديم ومنذ صدر الإسلام:

وقد حصل مثل هذا الاستغزاء قديمًا، وفى صدر الإسلام، وشارك فيه نفر من الصحابة ومن التابعين بحسن نية منهم، واعتقاد بـرىء بأنهم يخـدمون الإسـلام، ويكشفون غامضًا من القرآن، وذلك حين أخذوا بعض معلومات من اليهود لاسيما الذين أسلموا، وكانوا على علم - طبعًا - بما يتردد فى كتبهم، وفسروا به بعض المجمل من آيات القرآن، الذى لم يفصله، لأنه لا حاجة للإنسان إليه فى إعطاء العبرة، كلون كلب أهل الكهف مثلاً، ونوع الشجر الذى عمل منه نوح عليه السلام سفينته، وحجمها، مما تركه القرآن لعدم الحاجة إليه فى إيراد القصة، وإبراز العبرة منها.

ولكن حب الاستطلاع جعلهم يبحثون عنها ومثل هذا كثير، نجده فى كتب التفسير وغيرها، ويسمى بيننا «بالإسرائيليات».

وقد غزت هذه الإسرائيليات عقولنا من قديم، واشتركت فى تشكيل أفكارنا وثقافتنا وصياغة عقولنا، ونظرتنا لبعض الأمور المهمة، والسيطرة على نفوسنا.

وهى وإن كانت معلومات، إلا أنها أثرت وتؤثر على نفوس المسلمين من داخلها، وتشكل نظرتها للأمور سواء أكانت متصلة بالدين أو بالتاريخ.

والدين والتاريخ - كما نعرف - من مقومات أو مكونات الثقافة والفكر والنظرة التى بها ينظر الإنسان إلى الحياة فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

= لخداع الجمهور.. وقد كان ماتوقعناه، ووجدت فى أهرام ٨٤/١٢/١٣ كلمة فى حوار مع الأخ الدكتور زكى نجيب محمود، ينكر فيها على أمثالنا أن نحارب أفكارًا يروجها المصريون أو المسلمون عامة بمنتهى حريتهم وإرادتهم، ولا ينطبق عليها «الغزو»، ويقول أين الغزو الذى تحاربونه وتقفون ضده؟ كأنه يريد أن نلقى السلاح أمام هذه الأفكار الغريبة النشاز، مادام بعض منا يروجها ناسيًا أن من واجبنا وواجبه أيضًا كمسلم محاربة كل فكر يشوه ثقافتنا ويهدمها، سواء حمله العدو الخارجى أو وكلاؤه منا.. وإذا قاطعنا سلعة أجنبية مثلاً، لأنها ضارة بنا أو بصحتنا، ثم وجدنا واحدًا منا يروجها، أفيجوز لنا أن نقبلها، لأن مصريًّا يعرضها علينا حتى ولو كتب عليها «صنع فى مصر» ليخدعنا، أم أننا نرفضها ونرفضه أيضًا كمواطنين صالحين ونعتبر عمله هذا خيانة لمصالح بلده؟ وتآمرًا عليها؟

وسيأتى المزيد من هذا حين نتكلم عنه بتفصيل أكثر، ونتابعه على مر التاريخ.

ويكفينا مما قدمناه توضيح معنى الغزو المادى، والغزو المعنوى أو الثقافى، وما تبعه من معنى «الاستغزاء» الذى نجلبه بأنفسنا.. لننتقل إلى توضيح معنى «الثقافة» أو «الثقافى».